

من مآثر الأمير عبد القادر

(مهابة ال حنبده الأمير سيد الجزائر)

للأستاذ محمد أسامة عليّة

لمناسبة قيام الدول العربية بتأديب المصائب الصهيونية في فلسطين رأيت نشر ذرو من أخبار هذا الزعيم المجاهد :
في وقعة (خندق النطاح) الأولى سنة ١٢٤٧ هـ كان الأمير بين الصفوف يحرض المحاربين على الثبات ويأمرهم بالتمسك ، فجعل عليه أحد فرسان العدو برعته فر من تحت لإبطه الأمير فشد عليه بمضده وهوى بسيفه على الفارس فقتله نصفين . ولما تولى النهار وقعت الهزيمة في عسكر الفرنسيين فولوا مديرين وانتهبهم السلجون واستولوا على ذخائرهم . وفي هذا اليوم طمن فرس الأمير ، وكان أشقر اللون ، ثمانى طمنات يحربات العدو ، ثم رماه أحدهم بالرصاص في رأسه فوقع به ، فلم يبال الأمير بذلك بل قام في مكانه ثابتاً إلى أن قدّم إليه جنده غيره فامتطاه ، وظل يقاتل إلى أن انتصر السلجون ، وأشار إلى ذلك الأمير في بعض شعره بقوله :

توسد بمهد الأمن فدمرت النوى

وزال لتوب السير من مشهد النوى
وعمر جياداً جاد بالنفس كرها
وقد أشرفت مما عراها على النوى
وكم قد جرت طلقاً بنا في غياهب
وخاضت بحار الآل من شدة الجوى
وإننا سقينا البيض في كل معرك

دماء المدى والسر أسعرت الجوى
الم تر في «خندق النطاح» نطاحنا
غداة التقينا كم شجاع لهم لوى
وكم هامة ذلك النهار قددها
بمد حساي والقنا طمنها شوى
وأشقر نحى كلته رماحهم

ساراً ولم يشك الجوى بل وما التوى
بيوم قضى محباً أخى فارتق إلى
جنان له فيها نبي الرضى أوى
فما ارتد من وقع السهام هتانه
إلى أن أتاه الفوز برغم من فوى
ومن بينهم خلصته حيناً قضى
وكم رمية كالنجم من أفته هوى

ويوم قضى نحى جواد بمية
وبى أحذقوا لولا أولو البأس والقوى
وإنما بنو الحرب الموان بها لنا
سرور إذا قامت وشاننا عوى
وفي وقعة خندق النطاح الثانية استشهد السيد احمد ابن أخى
الأمير وهو ابن خمس عشرة سنة بمد أن بدا من بسالته ما أذهل
المقول . ولما وقع عن جواده ميتاً بين الصفوف هجم الأمير في
طائفة من وجوه الأبطال جعلهم رده أله ، فخرق صفوف العدو
وانتقل ابن أخيه من بينهم ، فمجب الأعداء من ذلك وأيقنوا أن
القتيل أمير فحاولوا منهم من أخذه فخابوا ...

وفي معركة برج « رأس العين » أخذ العدو يرسل قنابله على
جيوش المسلمين كالطمر ، فلم يزدحم ذلك إلا شدة وحماسة ، وجعل
الأمير يسير بين المشاة والفرسان وسائر الصفوف يحرضهم على
الثبات والصبر في مجال الموت ويذكهم بأيام الله ، وبينما هو على
ذلك إذ عدا عليه أحد فرسان العدو بسيفه فخاد عن سرجه
فجاءت الضربة في الفرس فوقع لحينه ، فركب غيره واستمر على
ما كان فيه من الحظ على القتال . وبلنه أن المشاة فرغت أيديهم
من الرصاص فأسرع إليهم بما يكفهم منه ، ولم يحفل في ذهابه
وقوله بتقابل العدو المتصلة وصواعقه المتتابعة من البرج والبلد .

وفي غزوة « المقطع » التي شنّها الجنرال تريزيل ناقصاً بها
الماهدة بينه وبين الأمير ، خرج الجنرال من وهران في خمسة
آلاف راجل وفرقة من الفرسان وأربع قطع من المدافع الجبلية
وعشرين مركبة للتموين عدا المركبات الاحتياطية ، فنهض له
الأمير في نحو أثنى فارس وألف من المشاة فاحتل « بسبك »
عازماً على الإقامة هناك إلى أن يتلاحق الناس بالجيش ، ولكن
تريزيل عاجله بالزحف إليه ، فعبا الأمير كتابه ورتب جنده ،
وعين الميمنة قائداً وللميسرة كذلك ، وثبت هو في القلب ،
وتزاحف الجمعان واحتدم القتال واستمر يومين فارتدت عساكر
الفرنسيين على الأعقاب ، وقتل منهم على ما ذكره (روا) في
تاريخه جم فقير ، فبهم الكندان أودينو ابن المارشال دوك
دى تريجو ، وكان قتله سبباً في هذه الهزيمة النكراء . وكان
الظلمة والتمب أنها جيش الأمير فنفرقوا ، ثم شعروا بأن العدو
بات قريباً منهم فرجموا أفواجاً أفواجاً ، وتوجه الأمير في ألف

من القبائل رغبة ورهبة وساروا في جيوشه . وقال تشرشل :
لما رأى الفرنسيون ذلك بادروا بذر الذهب والفضة رشوة لزعماء
القبائل ، فلم يجدهم ذلك نفماً ...

وكان في بعض معاركه يقم مع كثير من فرسانه في جهات
بميدة عن جيوشه ، وينفذ زادهم فيضطرون أن يقتاتوا بالبلوط ،
ثم يمترون على خروف فيقدمونه إلى الأمير فيؤثر جنوده به مع
أنهم في المحمصه سواء . وكان المدو يبذل كل شيء في سبيل
نقض الزمالة مقر الأمير وبيت ماله فركبوا الأهوال من أجل ذلك .
وبعد معارك عنيفة وبعد أن انتقل بها الأمير إلى أراض قاصية
استطاعوا أن يكسحوها ، فحزن الأمير لذلك ولكنه لم يهن
بل قال : سبحان الله ! كل شيء كتنا نجبه وتملقت أفكارنا به
كان يعوق حركاتنا ويحول دون الوصول إلى مطلوبنا ، والآن
صرنا أحراراً متجردين لا شغل لنا إلا مقارعة الأعداء ومصارلتهم
ومن فقدناه من الرجال فهم شهداء في الفردوس ونعيمه ، وأما
الأموال فسيخلفها الكريمة الوهاب ، ويجب أن لا نجبن بل
نكون أشد ما كنا أملاً .

وبعد استيلاء المدو على حاضرة الأمير (مسكر) خطر
للأمير مرة أن يدهمها فزحف عليها بجيش قليل في عدده ، كبير
في شجاعته وإيمانه ، فخرج إليه الأمير الای جبري بجيشه وانضم
إليهم الجنرال بيدو والأمير الای تاميور ومعهما الفرق التي كانت
في تلمسان ، ولحقت بهم الفرق التي كانت في قسطنطينة ، والأمير
في قلة من الجيش والذخيرة ، لحمى وطيس الحرب بينهم فلقوا
جيش الأمير ، فأبلى الأمير ومن معه بلاء حسناً ، فأصيب جواد
الأمير ، فدافع عنه قومه واستشهد بسبب ذلك عدد منهم ،
وركب الأمير جو دأ آخر ونجا مع بعض قومه ، وحال الليل
بينهم وبين باقي جند الأمير ، فأشاع المرجفون أن الأمير استشهد
فقالت شقيقته لوجوه القوم : إن فقد شقيقى وذهب فإن كفاحكم
ودفاعكم عن الدين والوطن باق في عنقكم إلى الأبد . فأثارت
فيهم روح الشجاعة والفتوة .

وكان من عادة الأمير أن يلقى المدو وهو في طليمة الجيش ،
ومع ذلك فلم يصب في جسمه سوى مرة واحدة ؛ فقد مسحت
رصاصه طرفاً من أذنه اليمنى ، فصل لذلك ركعتي الشكر لله على
ما أسابه في سبيله . وكان بمضهم يظن أنه يتغذى حجياً وتماويز
تقيه الأذى فأخبرهم أنه لا يموز نفسه إلا بما ورد في السنة من

فارس اختارهم من جنده وأردف كل فارس جندياً من المشاة ،
وخفوا إلى « القطع » ، وسدوا على الجنرال سبيله ، وأحاط
جيش الأمير بجيش الجنرال وأضرموا عليه نار الحرب ، فاضطرب
الجيش الفرنسي وقتل كثير منه وأسر عدد كبير وغرق في نهر
هيرة أكثر ، وغنم المسلمون ذخائره ، وانسل الجنرال إلى ساحل
البحر بمن بق معه . ثم أرسلت فرسة المارشال كلوزيل والدوك
دورليان ولي عهد ملك فرسة إلى الجزائر مع الجند والعتاد نجدة
وإمداداً لمن هناك ممن هجزوا عن مكافحة الأمير ، فكانت الحرب
بينهم سجالات في عدة وقائع ، ثم تناب عليه المدو لوفرة عدده
وقوة عدده ، فاستولوا على حاضرة الأمانة . ثم لم الأمير شتمه
واستجمع قوته ، ونازل عدوه واسترد الحاضرة ، ثم ظهر عدوه
عليه مرة ثانية وغزا تلمسان ، فحصره الأمير وانقض عليه

ويذكر الماورخ اسكندر بالمار شديد محبه من استجماع الأمير
قوته ورجوعه إلى حاله الأولى بعد أن انصمحت ثلاث مرات ،
وكل واحدة منها كافية لسقوط أعظم سلطان راسخ القدم .
وقال تشرشل في تاريخه : بعد أن سرد تاريخ حروب الأمير
مع فرسة : إن هذه الأعمال كبيرة جداً بالنسبة إلى سن الأمير
وكان في الخامسة والعشرين مع عدم الاطلاع على أحوال العالم ،
لكنها صغيرة بالنسبة إلى ذكائه الفريد . ويجب العاقل متى سمع
أن دولة فرسة احتاجت إلى مائة ألف عسكري تقابل بها الأمير
عدا المساعدات الداخلية والخارجية ... مع أن الأمير لم تزد قواته
على عشرة آلاف مقاتل .

ولما تواطأ المدو مع جيران الأمير على خذلانته ، وتوات
النجدات للجيوش الفرنسية التي تقاؤه مع فيض من السلاح
والذخيرة ضف أمره ، واستولى المدو على المدن والقلاع ،
فأخذ الأمير عاصمة كبيرة متقلة مؤلفة من خيام كثيرة ومضارب
وثيرة ، وسمى ما يخصه منها « الزمالة » وما يخص الأعيان والمامة
« الدائرة » وما يخص الجند « المحلة » ، وأخذ مجلة مضارب لمصانع
السلاح ، وأعد فسطاطاً واسعاً لاجتماع المجلس العام ، وآخر
جملة مسجداً ، ورتب مضارب للباعة وأهل السوق ، تضرب
بميدة عن الزمالة والدائرة ...

ويقول روا في تاريخه : إن الأمير عبد القادر كان لا يعمل
من التنب ولا يكل من الحرب ومشقاتها ، وكان يشاهد انتصارات
فرسة ، ولا يرى نفسه مغلوباً لها . واستهال بمحكمة قلوب كثير

الأذكار المشهورة .

ولما الأمير في غاية أسره إلى حرب المعاصيات فكان يظهر في اليوم الواحد في غدوته في مكان ، وفي عشيته في آخر بعيد عنه كل البعد . قال تشرشل : لقد هب الفرنسيون من بسالة الأمير عبد القادر وسرعة اختفائه هو ومن معه ، وذكرت ذلك في بعض المحافل السياسية مدهوشاً من أسره فتشهد له بعض القواد بمعجب البسالة والحماسة والثبات مع السرعة في الحركات الحربية .

وقد أفرد تشرشل الإنكليزي الفصل السادس عشر من تاريخه لذكر حسن معاملة الأمير الأسرى ورحمته بهم والشفقة عليهم ، وكان يكافئ من يأتيه بالأسير حياً أكبر مكافأة ، وكانت والدته الأمير تعنى بأسيرات النساء عناية تسيهن ما هن فيه . وجاءه مرة أحد أعرانه بأربع من أسيرات النساء ، فحول الأمير وجهه وقال : الأسد يقتص الحيوان القوي ، وأما ابن آوى فيقع على الضعيف . وقال فاليرت في تاريخه : كان الأمير عدواً كريم الأخلاق فإن كل من كان أسيراً عنده قد أتى عليه .

واضطر الأمير في بعض معاركه إلى الأمر بإحضار جملين فشدوا على كل واحد حزمتين من الخلفاء بمد أن لاشوها بالقطران والزفت ، وأمر أن تعصر النار فيهما حين الحمل على العدو ، فلما أحس الجملان بالنار فورا وذهباً يجوسان خلال خيام العدو ، والجيش من ورأئهما ، فذراع العدو إلا مشاعل النار تجول بين الخيام ، ومطر القذائف تنزل عليهم من حيث لا يحتسبون ، فلم يسمعهم إلا الفرار مخلفين الذخائر والتاع . ولما اضطر الأمير إلى التسليم بشروط وافق عليها الجنرال لامورسيير ، ومنها أن يذهب بأهله وحاشيته إلى بلاد الشرق ، خذته فرنسا وحملته إلى بلادها ولامت الجنرال لامورسيير وأثبتته على عدم أسر الأمير بدلاً من قبول تسليمه ، فقال الجنرال : لو حاوت أسر الأمير وزحفت عليه لهذا الغرض ما رجعت بغير خيمته وسجاده . وإنه ليذهب إلى الصحراء بحيث لا أستطيع الوصول إليه ، لأن عبد القادر ذو صلابة في دينه مشتهر بالصدق والأمانة في وطنه شديد التمسك بمبادئه ، وهذا هو السبب الذي جمع القلوب عليه ، والظفر الذي أحرزه في حربه معنا هو ثمرة ما قرناه ، فلو ترك في بلاده لكان خطراً علينا ، وما فعلت أنا غير الصواب ، وأرجوه إذا شتمت إلى موطنه وردوا إليه القوة التي بقيت معه واتبعوا عليه عنوة إن

قدرتم ، وما قبلت أنا والحاكم العام تسليمه على شروطه إلا حرصاً على راحة فرنسا وجنودها التي أسهكتها الحرب ، وضنا بأموالها الكبيرة التي تنفق في هذه السبيل .

ثم طلبت فرنسا من الأمير أن يتخذ فرنسا وطناً له على أن تمنحه أملاكاً واسعة يحمله من كبار أغنيائها . فاجابهم بأن الحرية أفضل عندي من أموال فرنسا كلها .

ومما نظمته في تلك الأيام قصيدة طويلة ، منها في حنينه إلى الأوطان :

ومن حجب سبرى لكل كرهية وحلى لأنقال نجل عن السد
ولست أهاب البيض كلا ولا الفقا
بيوم تعبير الهام للبيض كالقمد
ولا هالتي زحف الصفوف وصوتها

بيوم يشيب الطفل فيه مع الرد
وأرجاؤه أُنحت ظلاماً وبقه سهوقاً وأصوات المدافع كالرعد
وقد هالتي بل قد أفاض مدامي وأضنى فؤادي بل تمدى عن الحد
فراق الذي أهواه كهلاً وبافماً وقلبي خلى من سعاد ومن هند
وبعد إقامته في بلاد الشرق سافر مرة إلى باريس لبعض الشئون فزار قصر فرساي ودخل إلى مكان فيه صور الوقائع التي جرت بين جنوده وجنود فرنسا وكان النصر فيها لهم ، فقال للجنرال المحافظ على القصر : لماذا لم تثبتوا صور اللاحم التي كانت المهزومة فيها للجيوشكم والديرة عليهم ؟ فضحك الجنرال ومن حضر من الأعيان وأيدوا كلام الأمير .

ودعا امبراطور فرنسا إلى معسكر شالون لينتهد منه موسم عيده ، فكلمه في شئون كثيرة ، ثم قال له : إن الإمام الشيخ شامل السجين عند ملك الروس يود الذهاب إلى بلاد الإسلام وقد قاربت سنة السبعين . ولما كنت في الآستانة كلمت سفير روسيا في شأنه ، فقال إن الملك وعده بإطلاقه في نهاية الحرب في الهندستان ، وقد انتهت ، ولكن لا بد من انتظار انتهاء هجرة الجراكسة من بلادهم إلى بلاد الدولة العلية . وتحدثت في الآستانة إلى الصدر الأعظم ووزير الخارجية في هذا الشأن فقالوا إن الدولة العلية تقبل إقامته في بلادها . وأنا لم أعن بأمر الشيخ شامل إلا لأنه قام بماقت به ، والإنسان يميل بطبعه إلى شبيهه .

طيب الله ذكركي هذا الأمير الباسل ، وأجزل له من مثوبة
المجاهدين ... محمد أسامة عليين